٥

أجل ، سقط المديح فأصبح الشعراء يلحون فى طلب المال ويجددون طلباتهم فى صراحة تبلغ القحة ، يبيعون شعرهم ونفوسهم وينزلون إلى درك الطلب والمسألة . فإن كان المتنبى طلب ضيعة أو ولاية فالشاعر عمارة اليمنى سأل شمس الدين تورانشاه ما لم يسأله أحد مثله :

فَامننْ علىَّ بنصفِ الأَلْف راتبةً فَقَدْرُ ودّك لا يَحْويه مِقْدَارُ

مقسومة فى شهور العام تحمل لى أقساطها كلّ شهر وهى إدرارُ

فهو يطلب المبلغ ويرى قسمته على شهور العام فى أقساط تحمل إليه ليعيش وينتعش ، وهذا فى نظرنا نهاية المطاف بالشاعر الحرّ ، ونزولٌ إلى درك السائلين الشحاذين ؛ وبعد عن العفة والإخلاص فى المدح ، وكشف عن أستار المادحين وسقوط بمرتبة المديح فى ظاهر اللفظ وصريح الطلب ، كما فعل سبط ابن التعاويذى حين عاتب الملك العادل يوسف بن أيوب فى عطائه وطلب إليه أن ينظمه على صلات موقوتة معينة من العام :

وكان يا «يوسف» السماح بنا إلى عطاياك شوق «يعقوب»

حاشاك أن ترسل الصِّلات على غير نظام وغير ترتيبِ

فتلاعب باللفظ وجعل شوقه إلى مليكه يوسف شوق يعقوب إلى ابنه ، ثم عاتبه بعد ذلك على النظام والترتيب فى إرسالها ورأى أن لا يسوى بينه وبين غيره فيها :

سوَّيتَ بى فى العَطَاء مَنْ لايجا رينى فى مذهبى وأسلوبى